

# التجربة الروائية عند عبد الملك مرتاض

## رواية مرايا متشظية أنموذجا

د. خليفي سعيد

المركز الجامعي بغليزان

أصدر مختبر السرد العربي<sup>(1)</sup> بجامعة قسنطينة الأعمال السردية الكاملة للدكتور عبد المالك مرتاض في أربع مجلدات أنيقة ضمت أحد عشر عملا للكاتب.. هذا العمل الضخم، أعده وقدم له ووثقته وعلق عليه الدكتور يوسف وغليسي، الذي خصّ الكاتب بدراسة هامة تضمّنّها المجلد الأول، وتناولت سيرة عبد المالك مرتاض الذاتية، والتي جمعها من معرفته الشخصية له.

بعد السيرة الوافية يقف وغليسي عند المنجز السردى المرتاضى، على تعدد أشكاله وتراكم نصوصه وثرأء تجاربه، الذي لم يحظ بما هو جدير به من القراءة والبحث، وأرجع ذلك إلى أحكام غيايية مريبة... أعدمت أعمالا دون أن تقرأها أصلا، وبينه وغليسي إلى أن مؤرخي الأدب الجزائري تغاضوا سهوا أو عمدا عن كون عبد المالك مرتاض من مؤسسي الرواية الجزائرية، على اعتبار أنه كتب روايته الأولى "دماء ودموع" في ربيع 1963 وروايته الثانية "نار ونور" في صيف 1964 فكان تاريخيا أول كاتب من جيل الاستقلال يقبل على كتابة رواية بل روايتين اثنتين متتابعتين.

---

(1)- ينظر، الموقع الإلكتروني، مختبر السرد العربي بجامعة قسنطينة، 2013/04/29.

ثم يعرّج بعد ذلك على الكفاءات السردية لمرئاض خارج السرود الرسمية، حيث، وبعد أن يقرّ بالتجربة الشعرية المتواضعة للكاتب، يشير إلى تعدّد مواهبه السردية من الروايات العشر التي كتبها إلى المجموعة القصصية "هشيم الزمن" إلى مسرحيته "نساء للبيع" و"زواج بلا طلاق" إلى سيرته "الحفر في تجاعيد الذاكرة" يضاف إليها ما كتبه في أدب الرحلات: "عائد من موسكو" ورحلته الإماراتية، فضلا عن كتابه حول السيرة النبوية الذي يقول بشأنه الدكتور وغيلسي: "لقد قام الدكتور مرئاض بحدثة التاريخ الاسلامي، وسردته، وشعرته الحادثة التاريخية".

ويكشف صاحب التقديم إلى أن مرئاض تصرف في الأعمال حين قدمت له تحضيراً لطباعتها، فصحّ ونقح وحذف وزاد، إلى درجة أنه لم يحتفظ من الأعمال الأولى سوى بهندستها البنائية وأحداثها وشخصياتها، وهو ما اعتبره وغيلسي تحييناً وترميماً للتراث السردى لهذا الكاتب، وفي مقدمة الدراسة يلاحق يوسف وغيلسي التطور السردى لعبد المالك مرئاض، من البدايات راصدا مسار التحول ومسار الانعطاف ثم مسار العودة إلى الذات والاستثمار في الموروث السردى القديم منتهيا إلى الكشف عن الثابت اللغوي في المتحولات السردية لكاتب عدّه من القلائل الذين يُعرفون من لغتهم.

وقد ضمّ المجلد الأول رباعية الدم والنار: "دماء ودموع"، "نار ونور"، "صوت الكهف"، "حيزية". وقد اشتركت هذه الروايات من حيث مضمونها الذي تناول تحديدا موضوع الثورة وتداعياتها.

وضمّ المجلد الثاني ثنائية الجحيم: "مرايا متشظية" و"وادي الظلام"، الأولى صدرت سنة 2000، أما الثانية فقد كانت سنة 2005، وقد اشتركتا في كونهما يصنّفان ضمن ما سُمّي برواية المحنة، التي تتخذ من المأساة الوطنية بؤرة سردها، فمنها

تتولد أسئلة متنها الحكائي، وفي ضوءها تتشكل مختلف عناصر سردها، واستنادا إليها تتحدد رؤى كتّابها ومواقفهم من الذات، في علاقتها بالآخر والعالم، وقد جسّد هذا النمط المستحدث في خريطة الرواية العربية الجزائرية عددا مهما من النصوص، اتخذ من المحنة منطلقا ومدارا وحدثا بارزا<sup>(1)</sup>.

ويجوي المجلد الثالث ثلاثية الجزائر: "الملحمة"، "الطوفان" و"الخلاص"، وتصوّر جوانب متعددة من واقع المجتمع الجزائري في مختلف مراحلها، بطريقة فنية متميزة. أما المجلد الرابع فقد سُمّي بـ متفرقات سردية، ويضم عملين روائيين: الأول، "الحفر في تجاعيد الذاكرة"، وقد صدر سنة 2003 عن دار هومة، و2004 عن دار الغرب، وهو عبارة عن سيرة ذاتية يحكي فيها المؤلّف حياته بطريقة السرد المتعارف عليها ضمن المعايير التقنية، أما الثاني فهو رواية "الخنازير"، التي صدرت سنة 1985، ومثلت بداية التحوّل في الكتابة الإبداعية عند عبد الملك مرتاض، حسب وسيني لعرج في كتابه اتجاهات الرواية العربية الجزائرية قائلا "أما الدكتور عبد الملك مرتاض فقد استطاع هذه المرة أن يتجاوز إلى حدّ بعيد بعضا من أخطائه القديمة نسيبا"<sup>(2)</sup> وتتمثل هذه الأخطاء في طريقة السرد المتبعة التي غالبا ما كانت تحتفي بأساليب التوظيف المباشر للأحداث الذي ينقل الواقع بكل أمانة وصدق، إلا أن رواية الخنازير كسّرت هذه الرتابة حينما حاول الدكتور عبد الملك مرتاض "خلق طبائع فنية جديدة ... ونجح في ذلك إلى حدّ بعيد"<sup>(3)</sup>، فقد حاولت هذه الرواية أن تكون إنجازا روائيا

---

(1)- ينظر، بوشوشة بن جمعة، جدلية الوطن/المنفى وذاكرة الرهانات الخاسرة في رواية شرفات البحر لواسيني الأعرج مجلة عمان، تصدر عن عمان الكبرى، العدد 102 كانون الأول 2003، ص 107.

(2)- واسيني لعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 107.

(3)- م.ن. ص.ن.

ينضاف إلى الإنجازات الفنية الجزائرية الأخرى... ولعل هذا ما أعطى لهذا العمل نسغا جديدا لممارسة فن رواية جديدة شكلا ومضمونا<sup>(1)</sup>.

إن هذا التحول الواضح في طريقة الكتابة الروائية لدى عبد الملك مرتاض، تجسد بشكل لافت للانتباه بداية من هذه الرواية، "الخنازير"، ثم تجلّى وأصبح حقيقة لا يمكن التغاضي عنها في رواية "صوت الكهف"، التي حققت روح الرواية الجديدة وأسسها بكل المعايير، وقد كانت البداية الحقيقية لمرحلة النضج الفني عنده لأنها "نتاج لرؤيته بضرورة التجديد والتمرد على مبادئ النمطية المباشرة والواقعية الفجة وكانت وثيقة الصلة بتقنيات الرواية الجديدة الفرنسية وإنجازاتها النظرية"<sup>(2)</sup>، وقد سارت رواية "مرايا متشظية" ضمن هذا المنحى، بما تضمنته من خصوصيات البناء السردى الجديد.

وقد كان هذا الجهد الذي قام به مختبر السرد العربي بجامعة قسنطينة بمثابة مشروع جديد يسعى إلى وضع المتون السردية الجزائرية في متناول الباحثين تيسيرا للوصول إليها، وذلك بنشر الأعمال الكاملة للأساطين السرد الجزائري، والرّوائى الجزائري الدكتور عبد الملك مرتاض أحد هؤلاء الأساطين الذين سجّلوا حضورهم في مجال الكتابة الروائية العربية في الجزائر.

---

(1)- ينظر، م.ن. ص 108 - 109.

(2)- حسين خيري، سمائية الخطاب الروائي، تجليات الحداثة، مجلة علمية محكمة يصدرها معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، العدد 3، وهران، الجزائر، ص 175.

## المشكلات السردية في رواية "مرايا متشظية":

مثلت هذه الرواية وثيقة تاريخية لفترة حاسمة من تاريخ الجزائر، التي شكلت نقطة تحول حقيقية، وهذا لا يعني البتة أن الرواية من النصوص التاريخية التسجيلية، لأن عبد الملك مرتاض نظر إلى القضية بعين المبدع، وليس بعين المؤرخ، فكانت رؤيته فنية لقضية وطنية، أثارت اهتمامه، وشدّت انتباهه، وشغلت تفكيره، فتأثر بها ثم أعاد صياغتها في قالب فني ثري، غني بالدلالة العميقة. ويمكن أن نسجل بعض الملاحظات حول هذه الرواية، نوجزها فيما يأتي :

1. تتميز رواية مرايا "متشظية" باتساع عالمها الفني، وغناها بأشكال السرد الحكائي، وخاصة الشعبي والأساطيري، ومن جهة أخرى، فهي متأثرة بالإنجازات الروائية الجديدة، وذلك من خلال مزاجتها بين أسس النمطين معاً، إلا أنها اتسمت أكثر بملامح السرد الجديدة التي تتجاوز خصائص الخطاب الروائي التقليدي ومميزاته، الذي تسير فيه الأحداث وفق خطية الزمن وجغرافية الأمكنة، وتؤدي فيه اللغة وظيفة التبليغ عن هذه الأحداث وتحركات الشخصيات الواقعية.

2. الشخصيات في هذه الرواية تتماشى مع طبيعة القضية التي تمثل عمود المتن الحكائي وأساسه، وهي تصور الواقع المتناقض الذي يمتاز بالغموض والضبابية، ومن ثم كان لا بد من افتعال شخصيات ورقية لا تمتّ إلى الواقع الفيزيقي بصلة، لتستطيع أن تستوعب ذلك الزخم الحدثي الرهيب، وتكون أقرب إلى ذلك الواقع الغامض، ولعل هذا ما دفع بالكاتب إلى توظيف الشخصيات الأسطورية ذات القابلية لفعل الخوارق، لأن ما كان يحدث في تلك الفترة في أرض الواقع، أقرب ما يكون إلى الخيال منه إلى الحقيقة، ومن هذه الشخصيات نذكر العفريت جرجريس الذي حمل بذور الشر والفساد إلى الرواي السبع التي كانت آمنة مطمئنة" إلى أن جاءهم عفريت من

الجن. مارد جبار. يشبه الجبل الوحشي. يقال له جرحريس الجبار ... ليفسد فيها ويسفك دماء دناصيرها... "(1).

3. موضوع "مرايا متشظية"، يمثل حالة الذات الجزائرية المتشظية جراء الضياع وفقدان الهوية، بما يفرضه ذلك الواقع المتأزم، ولذلك فلا نظفر بحدث بارز واضح المعالم والأبعاد، ولكننا نسجل تداخلا للأحداث والمواقف المتباينة "لم أعد أدري من أنتم... ولا أنتم تدرون من أنا. بتنا لا أحد يعرف الآخر... نحن بدون هوية. نحن الضياع... أنا أعرف أنكم لا تعرفون أنفسكم. وأنتم تعرفون أيي لا أعرف. أنا أيضا. فلا أنتم تعرفون ما أعرف. ولا أنا عارف ما تعرفون..."(2)، الأمر الذي أدّى بالكاتب إلى توخّي الحدث الأسطوري، بفضل خصوصيته الخيالية ذات المرونة والطواعية، للتعاطي مع أحداث هذا الواقع المرير، مما سجّل خطابا سرديا متعدد الدلالة بتعدد القراءات وتجدها.

4. ولعل ما يلفت الانتباه أن الزمن والمكان، اتسما بالضبابية والإطلاق، حيث قام المبدع بإلغاء الحدود المؤطرة للمكان، كما أنه قام بإلغاء واقعية وتاريخية وخطية الزمن، فلم يصرّح بالمكان الذي جرت فيه الأحداث، ولا عن الفترة الزمنية التي يعينها في هذه الرواية، فقد كان للمكان دور فعال وإيجابي كونه عنصرا محركا للأحداث وأداة فنيّة ناجحة في علاقته الوطيدة مع الشخصيات بفعل وطأته عليها إما إيجابا أو سلبا، أما الزمن فقد اتسم بالتذبذب والتشويش، وذلك تماشيا مع ما يقتضيه نظام السرد المتّبع في الرواية، الذي يبني على تداخل الأحداث وعدم ترتيبها، بالإضافة إلى ورقية الشخصيات، والتضئيل من شأنها، "وإنك كنت. وإنك لكائن.

---

(1)- عبد الملك مرتاض، مرايا متشظية، (رواية)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص35.

(2)- الرواية، ص 41.

وإنك ستكون. وإنك في الحقيقة لم تكن. ولن تكون. ولكنك مع ذلك كنت...<sup>(1)</sup>، حيث شكّل هذا التلاعب بالأزمنة حركية متميزة، ساهمت إلى حدّ كبير في إضفاء طابع فنيّ يخدم الخطاب السردي، وينأى به إلى آفاق جمالية، تتعدد فيها الدلالة وتنوع.

5. إن المشكّلات السردية التي ذكرناها قد حظيت بعناية الكاتب واهتمامه، إلا أنّها لم ترق إلى مستوى اللغة، ولا غرابة في ذلك عندما يتعلق الأمر بـ عبد الملك مرتاض صاحب اللغة الراقية، والأسلوب المتميز، الذي يجمع بين التراث العربي الأصيل والذي يحمل في أعماقه جذور الأصالة ببلاغتها وانزياحها...، وبين التعبير بلغة العصر، ذات الكثافة والرمز...، ولذلك كانت لغة الرواية بعيدة عن التقريرية والمباشرة، قريبة من اللغة الشعرية ذات الطابع الفني والجمالي، وذلك باستخدام تقنيات السرد والوصف والحوار... بالإضافة إلى الأبعاد السيميائية للشخصيات والأحداث والأماكن وتناصّها، مما فتح الرواية برمتها على تعدّد القراءات وتجديدها.

ولذلك يمكن القول بأن الأعمال السردية لعبد الملك مرتاض عموماً، وهذا النص الروائي خصوصاً، تتخذ من اللغة أداة عجيبة النشاط للعب الفني المستمر بالمفردة، مما يجعلها تقع وسطاً بين الجديد الخالص الجدة، والتقليدي المحض التقليدي.

---

(1) - الرواية، ص 144.

